ثقافة أبي تمام
وأثرها في تعقيد شعره
للأســـتاذ دريني خشبة

منذ عهد قريب كنت أقرأ ذلك الكتيب الصغير الذي كتبه جلبرت موري عن بطل الدرامة اليونانية الأشهر يوريبيدز فلفتت نظري عبارة عجيبة للمؤلف نسب فيها انصراف اليونانيين عن شاعرهم العظيم الخالد وقلة احتفالهم بفنه المسرحي من وجهتيه الشكلية والموضوعية إلى جملة أسباب كان أهمها « وضوحه » ، ووصوله بسرعة إلى أفهام النظارة ! . . . ثم تكلم موري بهذه المناسبة عن الأمة الإنجليزية ، فذكر أن الإنجليز مثل اليونانيين القدماء ، يكرهون أن يكون الشاعر واضحاً[1]، ويؤثرون أن يكون في الشعر بعض الغموض ، أو كثير من الغموض ، الذي يستثير العقل ويحفزه إن كان خامداً ، ولا بأس أن يُعنّيه ، بل أن يضنيه أحياناً ، أما الشعر العادي — يقصد الواضح السهل الذي لا يجشم القارئ نصباً — فهو أسخف ألوان الشعر في نظر هذه الأمة العجيبة التي أمدت العالم بخير شعرائه المحدثين . . . وافتخر المؤلف بأن الإنجليز قراء مهرة ، وأنهم سريعو الإدراك . أو : Quick in the up-take كما يعبر هو ، فالشاعر الذي يكفيهم مؤنة التفكير في شعره بجعله واضحاً ، أو بإسرافه في جعله واضحاً هو أسخف الشعراء في نظرهم ، لأن شعره هذا السهل المشرق الصافي ينيم أذهانهم ولا يكدها . . . وهم يكرهون ألا تُكدّ أذهانهم بما يقرأون . . . ثم يتظرف موري فيقرر أنه ما على الشاعر إلا أن يُغمض في شعره بعض الغموض ، أو كل الغموض ، ليخدع هؤلاء الإنجليز عن أنفسهم — وربما عن نفسه ! — وليفوز بينهم بالمكانة العليا ، ومنزلة الشاعر العبقري !

أما عندنا ، فنحن نضيق بالشاعر الغامض ونلعنه . . . ويظهر أن في طبيعة أمزجة الشعوب العربية ما يحبب إليها اليسر والمرح ، ويزهدها في العناء في التفكير . . . وذلك لأن طبيعة البيئة في أوطان تلك الشعوب سهلة غير معقدة ، شأنها في اليونان وفي إنجلترا ، حيث اختلاف المناظر وكثرتها وتعقيدها أحياناً يورث اليونانيين والإنجليز مزاجاً أعمق وتفكيراً أهدأ ، وأشد غوراً ، فلا يضيقون بالغموض في شعر شعرائهم ، بل يغرمون به ، في حين يضيقون بالشعر السهل الواضح الذي لا مجال فيه لإعمال الفكر ، ويعدونه شعراً سخيفاً قليل الخطر منخفض الدرجة .

ولست أعلل ثورة دعبل وابن الأعرابي والآمدي ومن

(١) Euripides & His Age ص ١٣

تأليف كتاب أو ألف كتاب يكفي لا كتسابهم صفة الأدباء . وفريق الأدباء الذين وصلوا بطرق ملتوية إلى الشهرة واغتصبوها اغتصاباً ، فأولئك يزعجهم ويقض مضاجعهم أن يتنفس أو يتكلم كل أديب صادق النسب ، فهم لا يفتأون يتقلقلون ويتململون وراء ابتساماتهم الصفراء .

فالأديب في مصر لا يجد عوناً من أهل صناعته ، ولا يجد عوناً من الجمهور ، لأن الطبقة المستنيرة لا تعد إلا بالمئات في حين أنها في البلاد الغربية تعد بمئات الآلاف . . . بل ولا يجد عوناً من أصحاب المكاتب والناشرين ، فأكثر الأخيرين أميون أو شبه أميين لا يهمهم من نشر الكتب إلا الربح والتجارة . ولو ظهرت الكتب مشحونة بالأغلاط ممسوخة . . . وقد عرض أحدهم على مؤلف قبل الحرب أن يطبع له كتاباً ويعطيه خمسة جنيهات

وأكثر كتبنا تباع في بلاد الشرق والأقل منها يباع في مصر . وأكثر الكتب رواجاً هي بلا شك الكتب الدينية . . .

وتجد الجميات المستشرقة في أوروبا أكبر عون في حكوماتهم لطبع الكتب العربية النادرة ، ولذلك فإن أهم دواوين العرب وآثارهم . كان أول ظهورها في أوروبا ، وأوربا هي التي أحيت آدابنا ونشرتها نشراً علمياً ، هذه حقيقة مؤلمة تجب مواجهتها

وفي مصر لا تتألف جمعية علمية أو مجمع أو معهد ثقافي أو لجنة استشارية إلا ويصبح فيها أصحاب الأبهات والمناصب أكثرية ، ورجال الفن أقلية ، والظل الأعوج يتبع العود الأعوج .

محمد صبري

إليهم ممن قدحوا فى شعر أبى تمام وعابوه بالغموض ، والبعد عن عمود الشعر العربى إلا بطبيعة هـذا المزاج المشرق المرح ، الذى يستمد كيانه من طبيعة بيئة الشعوب العربية . . . ويتجلى ذلك المزاج فى تحمس الآمدى للبحترى ، فى كتابه «الموازنة بين أبى تمام والبحترى» ، وتفضيله شعر البحترى لسهولته ووضوحه وإشراقه ، والتواء شعر أبى تمام وتعقده وغموضه ، وثورته على طبيعة الفهم العربى الوادع المرح الذى يبغض الالتواء والتعقيد والغموض . وقد رزق الله أبا تمام كثيرين من النقاد العرب الذين هبوا يناضلون عنه ويدافعون عن طريقته ، وفى مقدمتهم ، أو على رأسهم ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولى ، صاحب كتاب « أخبار أبى تمام » الذى برهن بدفاعه المجيد عن شاعرنا الخالد على أن فينا أمزجة تشبه هذه الأمزجة اليونانية والإنجليزية المولعة بالغموض فى الشعر ، التى تؤثر الالتواء والتعقيد فالحمد لله ، وشكراً لأبى بكر الصولى !

* * *

وأكثر المؤرخين على أن أبا تمام ولد فى جاسم إحدى قرى دمشق ، وأقلهم — وفيهم صاحب الأغانى — على أنه ولد فى إحدى قرى مَنْبِج

وأكثر المؤرخين على أنه عربى من قبيلة طىء ، وأكثر هو من الفخر بذلك فى شعره . . ثم أقلهم على أنه ليس من طىء فى الذيل ولا الذؤابة ، بل إنه ابن رجل يونانى نصرانى أسلم ، وكان يدعى « تدوس » أو تيودوس فعدل به أبو تمام إلى أوس ، فصار يدعى أبا تمام حبيب بن أوس الطائى ، فراراً عن هـذه اليونانية التى كانت تكون له شرفاً لو أنها صحيحة ، لا عاراً كما أراد أعداؤه أن ينالوا منه ، ويقدحوا فى نسبه ، لأن ذلك يزكى مذهبه فى الشعر ويجعل له أصولا وراثية من دماء هؤلاء اليونانيين الذين غضوا من شعر يوريبيدز فى عصره لسهولته ووضوحه ويسره

وسافر أبو تمام إلى مصر بعد أن أيفع بالشام ، وكان أبوه خماراً ، وكان هو حائكا ، كما جاء فى تاريخه المضطرب . . . وأكبر الظن أنه لذلك لم ينتفع فى الشام بعلم ولا أدب ، وأن السـنوات الخمس التى عاشها فى مصر كانت فترة التعليم الجامعى الذى انتفع به أبو تمـام ، وشدا منه تلك الذخيرة من دروس الجامع الكبير ، أو مسجد عمرو بالفسطاط مستعيناً عليها بسقاية الماء ... ثم شـد رحله إلى المشرق بعد أن تمكن من نظم الشعر فى مصر تمكناً جعله سـيد شعراء عصره عشرين عاماً كاملة بإجماع النقاد . فاذا عرفنا أن أبا تمام لم يتجاوز الأربعين ، أو تجاوزها قليلا ثم مات . . . عرفنا أنه ثقف الشعر فى مصر . وحصل جميع علومه فى مصر . وأن مصر قد صنعت الجزء الأكبر من أدب أبى تمام وعلمه وشعره . وأنه حينما سافر إلى العراق سافر إليه وقد نضج عقـله وقلبه بكل ما كانا يفيضان به من علم وشعر . فان يكن قد انتفع فى بغداد والبصرة والكوفة بعلم أو أدب . فليس يعدو ذلك اطلاع الأديب الذى اشتد عوده والذى لا غنى لثقافته عن مواصلة القراءة ... والمقارنة بين مدارس الفكر المختلفة . يتقلب من أجلها بين البلاد :

خليفة الخِضْر من ربيعٍ على وطن
فى بلدة ، فظهور العِيس أوطانى
بالشأم أهلى . وبغداد الهوى . وأنا
بالرقتين . وبالفسطاط إخـوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تُشافِه بى أقصى خراسان
خلّفت بالأفق الغربى لى سـكنا
قد كان عيشى به حُلواً بحلوان[1]

فإخوان أبى تمام الذين تركهم وراءه فى مصر هم أخدان الصبا وأصدقاء الشباب وشركاؤه فى أيام الدرس والتحصيل ... وطالما تذكرهم أبو تمام بعد ذلك ، وسجل ذكره لهم فى شعره :

ذو الود منى وذو القربى بمنزلةٍ وإخوتى أسوة عندى وإخوانى
فى دهرى الأول المذموم أعرفهم
فالآن أنكرهم فى دهرىَ الثانى ؟
عصـابة جاورت آدابهـم أدبى
فهم وإن فُرّقوا فى الأرض جيرانى ؟
أرواحنا من مكان واحد وغدت
أبداننـا بشآم أو خراسان
ورُبَّ نائى المغـانى روحه أبدا
لَصيقُ روحى ودانٍ ليس بالدانى[2]

(١) من مدحة لأبى تمام فى محمد بن حسان الضبى
(٢) من مدحة له فى سليمان بن وهب

ولله ما أسعد تلك العصابة من الأصدقاء الأوداء الذين تتجاور آدابهم ، وتتنافس ثقافاتهم ، وتسفر بينهم قصائد الشعر ورسائل الأدب ... وقد ثبت أن أبا تمام قد نظم كثيراً من غرر شعره وهو فى مصر ، وأنه عند ما ذهب إلى العراق وأخذ فى إنشاد أشعاره ، وقف الناس منها موقف المشدوه الذى يرى فيها شيئاً جديداً لم تتعوده أذنه ، ولم يعرفه فيما عرف من أشعار العرب فكان الذى يستطيع فهمها يستحسنها ، ويشهد لها بالجدة والجمال ، أما الذين كانت تستعصى عليهم ، وتضيق بها أخيلتهم ، فكانوا يشتدون فى إنكارها كما يشتدون فى خصومة ناظمها ، وإن كان بعض الطاعنين على أبى تمام لا يملك أحياناً إلا أن يصفق له ... وقد كان أبو بكر الصولى لبقاً فى سوق أمثلة ذلك .

ولهذا فنحن نرى أن أبا تمام قد ذهب إلى العراق حينما ذهب إليه ، بفن جديد أنشأه فى مصر ، وضع فيها أصوله ، وقعّد قواعده ، ووشاه بذوقه المتفرد المفتن الجبار ... وحسبنا أن نقرأ قصائده الأولى التى أنشدها فى العراق لنعلم كيف فجأ الناس بها وبما تضمنته من غرائب هذا الفن الجديد العجيب ... وليس يصح فى الأذهان أن أبا تمام ابتدع ذلك كله بالعراق فجأة ، لأن قصائده الأولى هذه تشبه قصائده الأخيرة فى كل مشخصاتها ومقوماتها ، وربما كان بعض المتقدم منها أجود من بعض المتأخر

ولعل القارىء يسأل : ما بالنا نبدىء فى ذلك ونعيد ، وماذا نبتغى من إثبات فضل مصر على أبى تمام ؟ والجواب على هذا لا يخلو من أن نشغب على أستاذنا الدكتور طه حسين الذى أنكر هذا الفضل على مصر ، وجعل العراق وحده هو الوطن العقلى لأبى تمام ، وذلك فى محاضرته التى ألقاها عن أبى تمام وضمنها كتابه الفريد المفيد « من أحاديث الشعر والنثر » ونعود فنقول إن السنين العشرين التى تفرد فيها أبو تمام بجوائز الملوك والأمراء ، والتى كان فيها جميعاً فارس حلبة الشعر ، قد بدأت حينما بدأ أبو تمام حياته فى العراق ، وهو إذ ذاك فى حدود العشرين من عمره أو فيما يقاربها ، فأين إذاً نما غراسه الأول إن لم يكن قد نما واشتد وآتى أكله فى مصر ؟

ونحن لا ننكر أن أساتذة أبى العلاء فى الشعر العربى لم يكونوا من المصريين ، لأن أحدهما هو أبو نواس ، والثانى هو مسلم ابن الوليد ، وكان أبو تمام يعجب بهما ويسطو على آثارهما ، ينتهب منها ما يشاء . فيمضى فيه ، ويزيد عليه ، ثم يغرب ويغلو فى الإغراب ، حتى تكون البضاعة له خاصة آخر الأمر : وفى ذلك يقول الصولى فى رسالته إلى مزاحم بن فاتك :

« وليس أحد من الشعراء — أعزك الله — يعمل المعانى ويخترعها ويشكو على نفسه فيها أكثر من أبى تمام ؛ ومتى أخذ معنى زاد عليه ، ووشحه ببديعه ، وتمم معناه ، فكان أحق به ... »[1]

وسئل دعبل — أشد خصوم أبى تمام — عن شعره فقال : ثلث شعره سرقة ، وثلثه غث ، وثلثه صالح[2]

وأنشد ابن الأعرابى شعراً لأبى تمام فقال : إن كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل![3]

ولأبى العنبس ، ولابن مهرويه ، كلمات فى أبى تمام من هذا القبيل ، ولم يكن أحد ينتصف لأبى تمام بمثل ما انتصف له الصولى

فكيف يكون العراق وطن أبى تمام العقلى ، وقد كان مذهبه فى الشعر غريباً على العراق إلى هذا الحد ؟

(يتبع)

ومحمد عثمان

(١) أخبار أبى تمام ص ٥٣
(٢) و (٣) ص ٢٤٤

وزارة المالية

تقبل إدارة التوريدات العمومية لغاية ظهر يوم الخميس الموافق ١٨ يناير سنة ١٤٤٥ عطاءات عن توريد ورق لازم للمطبعة الأميرية لعام ٤٤ — ١٩٤٥ ويمكن الحصول على قائمة المناقصة وشروط العطاء من الإدارة المذكورة مقابل مائتى مليم .

٢٨١٤